الخدع والكمائن المتبادلة بين الصليبيين والمسلمين عهد صلاح الدين الايوبي

زهراء عقبة نافع

ا.د عباس عبد الستار

الخدع والكمائن المتبادلة بين الصليبيين والمسلمين عهد صلاح الدين الايوبي

زهراء عقبة نافع

ا.د عباس عبد الستار

المقدمة

تم ولأول مرة استعادة واحدة من الامارات الصليبية امارة الرها فضلا عن كونها اكبر امارة مساحة من اصل اربع امارات من قبل القائد عماد الدين زنكي والتي قُتل بعدها بأسابيع, مما ادى الى خروج الامارة من السيطرة الاسلامية وعودتها للصليبيين بمساعدة سكانها الارمن ,الا انها عادت للسيطرة الاسلامية وبالقوة العسكرية من قبل ابنه نور الدين زنكي مما تسبب في انطلاق الحملة الثانية من الحملات الصليبية والتي لم تحقق اي هدف ملموس منها سوى انها رسخت من دور نور الدين في قيادة الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين ,وبينت مدى انقسام الصليبيين على انفسهم سواء القادمين من اوربا او الصليبيين فيما يعرف في كتابات المؤرخين الاوربيين المُحدثين بالشرق اللاتيني.

اسفرت هذه البداية الجيدة للمسلمين والسيئة للصليبيين الى توحيد بلاد الشام ومصر والاحاطة الكاملة لدولة نور الدين بالمملكة الصليبية من ثلاث جهات الشرق والغرب والجنوب, وتعززت هذه الوحدة اكثر بتولي صلاح الدين حكم مصر وبلاد الشام من بعد وفاة نور الدين زنكي ليضيق الخناق على الصليبيين ليتوج ذلك بتحرير مدينة بيت المقدس, واسر ملكها غي لوزنيان ,مما اسفر عن قيام حملة صليبية ثالثة اشد حدة من سابقتها اشترك فيها اربعة من اعظم ملوك اوربا ,ورغم الانتصارات التي حققتها الحملة في بدايتها واسترجاع مدن عكا ويافا وارسوف التي سبق وان سيطر عليها صلاح الدين ,الا انها تعد انجازات لا تقارن بقوة جيوش هؤلاء الملوك الذين فت في عضدهم القدر والانقسام فعادوا من حيث اتوا من دون ان يسترجعوا أيا من الاراضي المقدسة بحسب الديانة المسيحية سواء الرها او بيت المقدس عدا شريط ساحلي ضيق على ساحل البحر المتوسط لتنتهي بذلك سلسلة طويلة من المعارك والخطط والتكتيكات العسكرية التي جرت على ارض المسلمين في الاناضول وبلاد الشام لتتغير وجهات الحملات الصليبية من بعدها الى مصر بدلا من بلاد الشام بعد

الاخفاقات المتكررة لهم فيها من جانب وانقطاع العلاقة مع بيزنطة وما كانت تقدمه من مساعدات لوجستية بعد ما اقترفته الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م فيها من احتلال ونهب وسلب .

ونحن في هذا البحث سنقدم صورة واضحة قدر الإمكان عن اهم الخدع والكمائن التي جرت بين صلاح الدين الايوبي وقادة الصليبيين سواء في الشرق اللاتيني او ممن قدموا مع قوات الحملة الصليبية الثالثة خاصة ريتشارد قلب الأسد.

بعد وفاة نور الدين علم صلاح الدين "ان ولده الملك الصالح(نور الدين) صبي لا يستقل بالأمر ,ولا ينهض بأعباء الملك ,واختلفت الاحوال بالشام ...فتجهز صلاح الدين من مصر في جيش كثيف ,وترك بالقاهرة من يحفظها ,وقصد دمشق مظهرا انه يتولى مصالح الملك الصالح ,فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة ,وتسلم قلعتها واجتمع الناس اليه وفرحوا به"(١), وبعد عدد من المعارك مع حكام بلاد الشام من الامراء المسلمين تمكن صلاح الدين من اخضاع بلاد الشام بالكامل لسيطرته ومن ضمنها حلب لتصبح مملكة بيت المقدس الصليبية اشبه بجزيرة في بحر خاضع لحاكم واحد وهو صلاح الدين الايوبي تحيط بها قواته شرقا في بلاد الشام وغربا في مصر(٢).

ليتم بذلك تأسيس الدولة الايوبية التي تعود بأصولها الى اسرة كردية من بلدة دوين على مقربة من اذربيجان ,وقد رحل ابوه نجم الدين بصحبة اخوه اسد الدين شيركوه من بلدتهما وقصدا العراق ودخلا في خدمة نور الدين زنكي ليتمكن من بعدهما صلاح الدين من تأسيس دولة مترامية الاطراف تمتد من الرها شمالا لتضم اليمن جنوبا ,ومن العراق شرقا الى ليبيا غربا وقدر لها البقاء الى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م عندما سقطت بيد المغول بقيادة هولاكو(٣)

اولا. الُخدع المتبادلة بين صلاح الدين الايوبي والصليبيين:

1-خديعة رينالد دي شاتيون ومحاولته احتلال المدينة المنورة بحرا:

لعل وقوع رينالد في الاسر بيد المسلمين مدة طويلة من الزمن جعله من اكثر الصليبيين حقدا ونقمة ورغبة في الانتقام من المسلمين فلم يتورع في كسر اي اتفاق معقود بين الصليبيين والمسلمين في سبيل الحصول على المال باي طريقة كانت لاسيما مهاجمة

القوافل التجارية في البر والبحر ,وفي اثناء ذلك راودت رينالد فكرة خطة جريئة لاقتحام البحر الاحمر ,وربما غزو مكة والمدينة على الرغم ان هدفه النهائي كان هو التحكم في حركة المرور الدولية بين اسيا ومصر عن طريق باب المندب ,وفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م بنى اسطولا في قلعة الكرك .وكانت المدينة يحيط بها سور يحف بها وموقعها استراتيجي بحيث تقع في قلب العالم العربي ونقله مفككا لمسافة تقرب مائة وخمسين ميلا عبر الطريق الصحراوي الى خليج العقبة حيث تم تركيبه ,وإنزاله مياه البحر الاحمر ,وتم احتلال جزيرة فرعون الصغيرة المواجهة للعقبة ,ثم اعقبت ذلك غارة متعجرفة نهب الصليبيون بعض الموانيء المصرية والحجازية ,ومضت اسابيع قبل ان ترد مصر المباغتة عندما تمكن الاسطول المصري (الايوبي)من رصد مواقع الصليبيين في الحجاز ,وكان الصليبيون قد توغلوا الى مسافة تقرب من المدينة(٤).

وتذكر المصادر العربية ان ارناط "بنى سفنا ,ونقل اخشابها على الجمال الى الساحل وثم ركب المراكب وشحنها بالرجال والآت القتال ,واوقف منا مركبين على جزيرة القلعة...فقطعوا طريق التجارة ,وشرعوا في القتل والاسر والنهب ,ثم توجهوا الى ارض الحجاز ,فعظم البلاء ,واعضل الداء ,واشرف اهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم ,ووصل الخبر الى مصر ,وبها نائب السلطان ,وهو اخوه الملك العادل سيف الدين ابو بكر ايوب ,فامر الحاجب حسام الدين لؤلؤ يعمر في بحر القلزم(الاحمر) مراكب بالرجال البحرية ,وسار الى ايله وهي مدينة على ساحل بحر القلزم(البحر الاحمر)مما يلي الشام ,وقيل هي آخر الحجاز واول الشام ,فظفر بالمركب الفرنجي عندها ,فاحرقه واسر من فيه ,ثم سار الى عيذاب ,وهي بليدة على ضفة بحر القلزم(البحر الاحمر)وهي مرسى مراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد ,ودل على مراكب الفرنج ,فتبعها فوقع بها بعد ايام ,واوقع بها ,واطلق المأسورين من التجار ,ورد عليهم ما اخذ منهم ,ثم صعد البر ,فوجد هناك عربانا نازلين ,فركب خيلهم ,وسار وراء المنهزمين من الفرنج ,فحصرهم في شعب لا ماء فيه ,فأسرهم جميعا ,وكان ذلك في الاشهر الحرم ,فساق منهم اسيرين الى منى لينحروا بها كما ينحر الهدي ,عقوبة لهم على قصد حرم الله وحرم رسوله ,وعاد الى القاهرة ومعه الاسرى"(٥).

وعلق المؤرخ الفرنسي البير شاندور على ما جره رينالد على الصليبيين بقوله "وهكذا بقيت الصليبية الاولى غير مفهومة ,ولم تكن حربا دينية كما سيثيرها صلاح الدين بعد الحركة الغبية التي قام بها رينو دي شاتيون عندما اختطف في قلب السلم قافلة تجارية كانت تعبر اراضيه ,وفي حركة المد الضخمة للغرب نحو الشواطيء الموقرة للأراضي المقدسة برز صلاح الدين الذي سيعرف كيف يجمع ويعقلن حواليه الامراء المنشقين "(٦).

2-خديعة صلاح الدين للصليبيين في معركة حطين :

ادى هجوم رينالد دي شاتيون على قافلة تجارية الى انهاء الهدنه بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس ومما ادى الى تحرك صلاح الدين لمهاجمة طبريا الذي استنجد اميرها بغي لوزنيان ملك بيت المقدس الصليبية الذي قرر الخروج على اثر ذلك لملاقاة صلاح الدين (٧).

تتصف المنطقة التي دارت في ميدانها رحى معركة حطين,التي تتسم بوجه عام بانها منطقة جبلية تكثر بها الاخوار العميقة والوديان والاخاديد ,ويحدها من الشرق نهر الاردن ,وفي شمالي المنطقة الشرقي بحيرة طبرية * طبرية: مدينة بقرب دمشق بينهما ثلاثة ايام ومطلة على بحيرة معروفة ببحيرة طبرية وجبل الطور مطل عليها وهي مستطيلة على البحر نحو فرسخ بناها ملك من ملوك الروم,(٨) وكان معسكر صلاح الدين شمال المنطقة عند قرية حطين في مكان تحيط به غابات الزيتون ,وشمال القرية توجد عين ماء جارية ,وبالقرب من القرية يقع تل عظيم مخروطي الشكل اسمه(قرن حطين) ,اما المسافة بين حطين حيث معسكر صلاح الدين وصفوريه حيث معسكر الصليبيين فعشرة اميال ليست فيها قطرة ماء واحده(٩).

واجه الجيش الصليبي الكمائن المنتشرة فلم يقدروا على بلوغ الماء الذي وراء المسلمين فقرر غي التوقف محاولة للتملص منها ,لما حل برجاله من التعب والارهاق, وتجمع المراجع التاريخية على ان الفرنجة اجبروا على تغيير هدفهم الاستراتيجي ,وهو شطر القوات الاسلامية وقطع خطوط مواصلاتها الى هدف آني ملح وهو الوصول الى الماء باي طريقة(١٠).

ذكر مؤلف مجهول بأنه "ما كاد الجيش المسيحي ينصب معسكره حتى بادر صلاح الدين ,فامر رجاله ان يجمعوا كل ما يستطيعون جمعه من غصون الشجر ومن الحشائش الجافة وغير ذلك مما يمكن استعماله لإيقاد النار, وليجعل من هذه النار اسوارا تحيط بالمعسكر الصليبي ,فنفذ الجند امر قائدهم تنفيذا كاملا وحتى اذا كان الصباح الباكر ازداد اضرامها حدة وتعالت السنة اللهب ,واطبق الدخان على المسيحيين من كل جانب ,بالإضافة الى شدة حرارة الشمس مما انزل بالمسيحيين اذى واضطرابا كبيرين وامر صلاح الدين بإحضار قوافل الابل محملة بالماء من بحيرة طبرية ,كما وضع جرار الماء قرب المعسكر ,وامر ان تفرغ على مرأى من المسيحيين مما زاد من شدة لهفتهم الى الماء وزاد في ظمأهم, بالإضافة الى ما يعانونه من العذاب, وابت الجياد عند نبع صفورية ان تشرب الماء ليلا او نهارا وقد دفعها الظمأ الى ان ترمي اصحابها من فوق ظهورها في لحظة كانوا احوج ما يكونون اليها"(١١).

واكمل صاحب ذيل كتاب وليم الصوري حديثه بالقول "حين اشتعلت النيران وتعالت السنتها وكذلك سحب الدخان احاط المسلمون بالجيش وراحوا يرمونه بسهامهم ويرشقونه بنبالهم ويقذفونه بنشابهم وتركوهم هم وجيادهم ما بين قتيل وجريح ,فلما رأى الملك النكبة الملمة بجيشه استدعى كبير فرسان الداوية والامير رينالد وسألهما الرأي ,فأشارا عليه بقتال المسلمين ,وحينذاك امر اخاه اميري ,الذي كان مدبر امر الجيش ان يقوم بتنظيم الصفوف وترتيب الكتائب والفرق وبذل اميري هذا غاية جهده في تنفيذ اومر اخيه الملك جي, اما كونت طرابلس فقد كان في طليعة الجيش ,وابناء صاحب طبرية وما كانت الصفوف تنظم وتصبح على استعداد للقتال حتى خرج خمسة فرسان من بين صفوف كونت طرابلس وفروا الى صلاح الدين قائلين له :فيم انتظارك الا وقد اوشكت الدائرة تدور عليهم ,فلما سمع كلامهم امر الرجالة بالتقدم فأطاعوه حتى يصيروا اقرب ما يكونون الى المسيحيين ولما رأى صلاح الدين اخذ نحوه في التقدم اصدر كونت طرابلس امره بالهجوم ,وكان المتبع عند بارونات المملكة انه اذا كانت المعركة تجري على ارض احد معين منهم الحق لهذا البارون ان تكون له قيادة الطليعة ,ومن ثم لما كانت طبرية تقع في نطاق اراضي كونت طرابلس فقد كان من حقه قيادة المقدمة ,ولقد فسح المسلمون طريقا بين صفوفهم حتى

يمر الكونت بمن معه فلما صاروا في وسطهم اطبقوا عليهم وابادوهم عن اخرهم غير اثنى عشر فارسا او عشرة كان منهم كونت طرابلس نفسه ,وريموند ابن امير انطاكية واولاد صاحبة طبرية الاربعة... وكان الانتصار كبيرا حتى القي القبض على الملك ذاته وكبير فرسان الداوية والامير رينالد والمركيز وليم واميري ...وكثيرين غيرهم من البارونات والفرسان الذي يطول ذكر اسمائهم ...لقد المت هذه النكبة بالمسيحيين في موضع يسمونه قرون حطين وكان وقوعها يوم السبت الرابع من يوليو (تموز)سنة ١١٨٧م"(١٢).

وذكر ابن شداد موقف المسلمين في حطين "احتاط اهل الاسلام باهل الكفر والطغيان من كل جانب ,واطلقوا عليهم السهام وعاملوهم بالصفاح ,وانهزمت منهم طائفة فتبعها ابطال المسلمين ,فلم ينج منها واحد, واعتصمت الطائفة الاخرى بتل يقال له تل حطين ...فضايقهم المسلمون على التل ,واشعلوا حواليهم النيران ,وقتلهم العطش ,وضاق بهم الامر ,حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل ,فاسر مقدموهم ,وقتل الباقون ,وكان فيمن اسر من مقدميهم الملك جفري والبرنس ارناط, واخو الملك ,والبرنس صاحب الشوبك ,وابن صاحب طبرية ,ومقدم الداوية ,وصاحب حبيل ,ومقدم الاسبتار ,واما الباقون من المقدمين فانهم قتلوا... ,واما مقدم الاسبتار والداوية فان السلطان اختار قتلهم"(١٣).

اما ابن واصل فجاءت روايته كالآتي "واحاط المسلمون بالباقين الذين اجتمعوا بجبل حطين ,وهي قرية عندها قبر شعيب النبي عليه السلام, وضايقوهم ,واشعلوا حولهم النيران في حلفاء كانت هناك ,فارتفع لهبها ,...وحطوا خيامهم على ظل التل ,فعاجلهم المسلمون عن ضربها ,واشتد الطعن والضرب ,ودارت عليهم دائرة السوء ,وعلموا انه لا ينجيهم من الموت الا الاقدام عليه ,فحملوا على المسلمين حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواضعهم ,فثبت الله اقدامهم ,ولم يحمل العدو حملة الا وقتل منهم جماعة واسر جماعة ,فوهنوا وهنا عظيما, ولم يمكنهم نصب خيمة الا خيمة ملكهم لا غير وملك المسلمون صليبهم الاعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ,فايقنوا بعده بالبوار ,واشتجر فيهم القتل والاسر ,وبقى الملك في مائة وخمسين فارسا ...واذا الخيمة سقطت ,فنزل السلطان ,فسجد شكرا لله تعالى وبكى من شدة فرحه(١٤).

واعقب ذلك اجتياح صلاح الدين للمدن الساحلية واسترجعها من الصليبيين اللاذقية ,وجبله , وكان النجاح صلاح الدين الرائع الذي حققه في تخفيض ممتلكات الصليبيين ببلاد الشام الى ثلاث مدن ,هي صور وطرابلس وانطاكية ,مع بعض قلاع نائية, في غضون فترة قصيرة من ١٨ شهرا ,حمل المؤرخين المسلمين والغربيين على حدا سواء على اعتباره قائد عظيم وناجح (١٥).

3-تحرير القدس وانطلاق الحملة الصليبية الثالثة :

ذكر صاحب كتاب الذيل على وليم الصوري "لم يدع صلاح الدين وسيلة من الوسائل لتحقيق رغبته الكبرى في الاستيلاء على مدينة القدس من الهجوم العنيف ليلا ونهارا الا اتبعها ,مما ترتب عليه حزن المسيحيين الذين بداخلها ,وبلغ الارهاق بهم أشده ,فلما ادركوا عجزهم عن حماية انفسهم والدفاع عنها راحوا يتشاورون فيما بينهم عما ينبغي عليهم عمله في هذا الموقف الذي هم فيه ...وخلصوا فرسانا واشرافا واولي الامر فيهم بانه يوجد ازاء كل واحد في هذه المدينة خمسون أمرأة وطفلا ,فلو متنا اخذ المسلمون النساء والصغار, وربما لم يقتلوهم ولكن يردونهم عن ملتهم وعن ايمانهم بعيسى المسيح فيخسرهم الرب عن بكرة ابيهم ,لكن اذا استطعنا الاتفاق مع صلاح الدين على الخروج جميعا من المدينة والذهاب الى البلاد التي في يد النصارى فذلك اجدى عاقبة من القتال ,لما في ذلك من خلاص النساء والأطفال ,وبعد مفاوضات لم تستغرق طويلا بين باليان الابليني متولي حماية المدينة ,وصلاح الدين تم الصلح كما اراد اهل المدينة من الصليبيين (١٧).

ويتفق ابن حامد الاصفهاني مع صاحب الذيل بخصوص ان صليبي القدس في حال عدم منح صلاح الدين لهم الامان وان يسمح بخروجهم فسوف يقاتلون حتى اخر رجل فيهم ,"اذا ايسنا من امانكم وخفنا من سلطانكم, وخبنا من احسانكم ,وايقنا انه لا نجاة ولا نجاح ,ولا صلح ولا صلاح ,ولا سلم ولا سلامه ,ولا نعمه ولا كرامه ,فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم ,ونقابل الوجود بالعدم ...ونلقي انفسنا بالنار ,ولا نلقى بأيدينا الى التهلكة والعار ,ويجرح واحد منا حتى يجرح عشرة , وإنا نحرق الدور ونخرب القبة ,ونترك عليكم في سبينا السبة ونقلع الصخرة ,ونوجدكم عليها الحسرة ,ونقتل كل من عدنا من اسرى المسلمين ...واما الاموال فنعطبها ولا نعطيها ,وفاوضهم(السلطان)في المصالحة المربحة.., وسلموا البلد يوم

الجمعة السابع والعشرين من رجب"(١٨), ٢ تشرين الاول ١١٨٧م ,وفرض صلاح الدين فدية على كل صليبي يخرج من المدينة ومع ذلك فقد افتدى هو بنفسه واخوه الكثيرين من معدمي وفقراء المدينة بعد ان عجز وجهاء واغنياء البلد من الصليبيين من فدائهم, وقسم الخارجين من المدينة الى ثلاثة اقسام اولا عهدت الى الداوية والثانية الى الاسبتارية والثالثة الى البطرك وبليان ثم اوفد خمسين فارسا مسلما على راس كل مجموعة يحرسونهم لحين دخولهم في المناطق التي في حوزة الصليبيين(١٩).

كان لاستعادة المسلمين القدس من أيدي الصليبيين اثرا بالغ في اوربا مما حفز كبار ملوك اوربا وبضغوط شعبية هائلة الى الخروج لاستعادة المدينة التي فيها قبر السيد المسيح (عليه السلام) ولقد سميت هذه الحملة حملة الملوك لاشترك اعظم ملوك اوربا فيها ,كما صدرت صورة في غاية القتامة عن اوضاع كنيسة القيامة والمسيحيين في الشرق ,واضحى صليب الصلبوت بيد المسلمين ,بل ان بيت المقدس ذاتها اخذها المسلمون ,وفي خلال بضعة اشهر انهار كل البناء الذي اقامه الفرنج في الشرق ,فكان لا بد من ارسال نجدة ,والتعجيل بإنفاذها (٢٠)

ولما كان فردريك الاول اول المتهيئين للانطلاق ,فقد اجتاز بجيش جرار الاقاليم البيزنطية في اوربا ,ثم اجتاز اقاليمها في اسيا الصغرى ,واقتحم عاصمة سلاجقة الروم قونية عنوة في سنة ٥٨٥هـ/ ١٨-٢٠ مايو(مايس) ١١٩٠م ,وبذلك تم له وبدون صعاب اجتياز هضبة الاناضول التركية التي اعتبرت مميته بالنسبة لكل الحملات الصليبية السابقة ,واذا به يموت غريقا بعد ان تعثر جواده في النهر فسقط عن صهوته وغرق في مياه نهر سلوقية(كليكادنوس), وكان ذلك في٥٨٦هـ/ ١٠ يوليو(حزيران) ١١٩٠م عندها امسى جيشه دون قائد وتبعثر شذر مذر ,اما جثته فنقلت الى انطاكية ودفن في مشهد مهيب (٢١).

وكان من اكثر الملوك الثلاثة التي اغتم السلطان لقدومه هو الملك الالماني بسبب ضخامة جيشه من ناحية ,ومشاركته اي فردريك بربا روسا في شبابه في الحملة الصليبية الثانية ,فيذكر ابن شداد" ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر يخبر فيها انه قد صح ان ملك الالمان قد خرج الى القسطنطينية في عدة عظيمة ,قيل مائتا الف, وقيل مئتا وستون الفا يريد البلاد

الاسلامية ,فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ,ورأى استيسار الناس للجهاد وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة ,فاستدعاني لذلك وأمرني بالمسير الى صاحب سنجار, وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب اربل ,واستدعاهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ,وامرني بالمسير الى بغداد لإعلام خليفة الزمان وتحريك عزمه على المعاونة, وكان اذ ذاك الناصر لدين الله ابا العباس احمد(٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م)(٢٢).

ويذكر صاحب الذيل على كتاب وليم الصوري" لقد استولى الجزع الشديد على صلاح الدين اذ علم بخبر قدوم الامبراطور فسارع مصدرا اوامره بتدمير جميع اسوار اللاذقية وجبله وبيروت وغيرها من المدن الواقعة على طول الساحل الشامي حتى لا تكون ملجأ يفيء اليه المسيحيون ويجدون فيه الحماية "(٢٣).

ونجد مدون سيرة صلاح الدين والمقربين اليه ابن شداد يركز على شخصية ريشارد فيقول عنه" وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم ,عظيم الشجاعة وقوي الهمة ,له وقعات عظيمة ,وله جسارة في الحرب ,وهو دون الفرنسيس(ملك فرنسا)عندهم في الملك والمنزلة ,لكنه اكثر مالا منه, واشهر في الحرب والشجاعة (٢٤).

4-خديعة صلاح الدين الايوبي للصليبيين وتحرير عكا:

شهدت معارك تحرير مدينة عكا* عكا: مدينة على ساحل بحر الشام من عمل الاردن يحده من الشمال لبنان ومن الغرب البحر ومن الجنوب الناصرة ومن الشرق طبرية وصفد ,من احسن بلاد الساحل في ايامنا واعمرها ووهي مدينة حصينة على البحر كبيرة ,لم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون واسمه مكتوب على السور اخذها الافرنج سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م وكان عليها من قبل المصريين زهرة الدولة الجيوشي بعد ان قاتلوا الى ان عجزوا ,فأخذها الافرنج قهرا وقتلوا وسلبوا ولم تزل بأيديهم الى زمن صلاح الدين فافتتحها سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وشحنها بالسلاح والرجال والميرة ,فعاد الفرنج فاتاهم صلاح الدين وازاحهم عنها ,وقاتل الفرنج اشد القتال ,وقتل خلق كثير حوا عكه وثارت روائح الجيف وتأذى المسلمون منها وظهرت فيهم الامراض ,ومرض صلاح الدين ايضا فامر الاطباء بمفارقة ذلك الموضع ففارقه ,فجاء الفرنج وتمكنوا من حوالي عكا وخندقوا دونهم وفكان الفرنج محيطين بالمدينة والخندق محيط بالفرنج ,فعاودهم صلاح الدين واقام حذاءهم ثلاث

سنين حتى استعادها الفرنج سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م وقتلوا فيها المسلمين وهي في ايديهم الآن (٢٥) اللجوء الى مناورات وتكتيكات عسكرية حتى تمكن المسلمون من استعادتها.

توجه صلاح الدين عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م نحو مدينة عكا لما تحتله من اهمية استراتيجية بالنسبة للصليبيين وقطع طرق الامدادات العسكرية والتجارية عنهم , ورغم عدد الجيش الايوبي الكبير المتكون من ١٢ الف فارس و١٨ الف من المشاة , الا انه لم يتمكن من فرض حصاره البري على المدينة ولم يتمكن من الاقتراب من اسوار المدينة الا بعد الاصطدام بالجيش الصليبي المرابط خارج المدينة ,ورغم تحقيق المسلمين للنصر الا انهم تراخوا في الاحاطة بالمدينة وخاصة من جانبها المقابل للبحر مما اعطى الوقت الكافي للصليبيين لترتيب صفوفهم ومباغتة الجيش المسلم المقسم الى ميمنة وميسرة وقلب يترأسه صلاح الدين ,اما الجانب الصليبي فقسم الى ثلاثة اقسام ايضا ميمنه ميسر وقلب يقوده غي لوزنيان ,وابتدأت المعركة بهجوم كبير للصليبيين علة ميمنة وميسرة الجيش الاسلامي مما دفعهما للتراجع فاسند صلاح الدين الميمنة والميسرة من قلب الجيش مما جعل الصليبيين يغيرون هجومهم نحو القلب بعد ان استفرغ معظم قواته لمساندة طرفي الجيش ,غير انه في هذا الوقت تمكنت ميسرة وميمنة الجيش الايوبي من دفع ميسرة وميمنة الجيش الصليبي الى الخلف وانسحبوا الى معسكراتهم وتعرض من هاجم قلب جيش المسلمين الى الابادة بعد ان حوصر بين ميسرة الجيش وقلب الجيش(٢٦).

وبسبب عدم تحقيق صلاح الدين نصرا حاسما على البر,امر الاسطول البحري المصري بمهاجمة سواحل عكا وبعد معارك بحرية مع السفن الصليبية تمكنت سفن صلاح الدين من دخول ميناء عكا وانسحب الصليبيون الى داخل المدينة مما مهد الى السيطرة عليها لاحقا(٢٧).

5-خديعة الصليبيين للمسلمين واحتلال مدينة عكا:

وصلت السفن الفرنسية الى سواحل عكا قبل قدوم السفن الانكليزية التي احتلت جزيرة قبرص, وفرض الصليبيون الحصار على عكا برا وبحرا ,وكان لدى فليب اغسطس آلات لإطلاق الحجارة تستخدم لضرب اسوار المدينة لتدميرها وقتل من وراءها لإحداث الرعب داخل المدينة(٢٨).

وبعد ان بدأت ذخائر المدينة تنفذ خاصة بعد ان انتزع الفرنج السيطرة على البحر من ايدي المسلمين ,على اثر قدوم الاساطيل الفرنسية والإنكليزية ,وقبل سقوطها لجأ الصليبيون الى العديد من الحيل والخدع للتمكن من اقتحام اسوار المدينة الساحلية فعملوا دبابات وزحفوا بها الا انها احرقت من قبل المحاصرين من مسلمي عكا ,ثم عملوا كباشا الا ان المسلمين استولوا عليها ,فلجأ الفرنج الى عمل تل ترابي كبير مستطيل ومازالوا يقربونه الى البلد ,ويقاتلون من وراءه لا ينالهم من البلد أذى ,حتى صار على نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه ,فلم يكن للمسلمين من حيلة لا بالنار ولا بغيرها, وبعد عجز صلاح الدين في فك الحصار عليها ,فاضطر قادتها بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الاسدي بن عبد الملك الاسدين الخادم الصلاحي من مماليك اسد الدين شيركوه(٢٩),وهو من بنى سور عكا ,فيذكر ابن حامد الاصفهاني "وكوتب بالحضور لتولي الامور وعمارة السور ...وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه من اسباب العمارة وآلاتها وادويتها وادواتها ,وانفارها وابقارها ورجالها وعمالها وعمارها, ومهندسيها وماسيها, وحجاريها ومعماريها,(٣٠) وحاكم المدينة ,وكبير القواد سيف الدين علي بن احمد الهاكاري الى الاتفاق مع الفرنجة على تسليم البلد ,مقابل الامان لأهل المدينة ,وكان ذلك يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/١٢تموز ١١٩١م(٣١).

6-خداع سفينة اسلامية قادمة من بيروت للسفن الصليبية المحاصرة لعكا وادخالهم الطعام للمدينة:

دون العماد الاصفهاني الحادثة التي تعرضت لها سفينة الشحن "تقلت اليها الغلة وملئت بالشحوم واللحوم ,وبكل ما تدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم ,وحمل فيها من احمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت ,ورتبت فيها رجال مسلمون ونصارى من اهل بيروت, وارادوا ان تشتبه ببطس(السفينة الكبيرة),وكانت تستخدم للحرب ,وقد تستخدم لنقل التجارة وكانت تحمل بالعادة بين ٣٠٠ و٧٠٠ مقاتل (٣٢) العدو في البحر ,وان لا ينكشف للفرنج مالها من الستر فتصوروا رهبانا ,وصوروا صلبانا ,ومسحوا لحاهم ومسخوا حلاهم ,وتملطوا وتكوفوا ,وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا وشدوا زنانير ,واستصحبوا خنازير ,وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين ,والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين

,ولقوم لجهلهم لا يشكون انهم من اهلهم ,ونسوا الحادث وأنسوا الحديث ,...ولما حاذوا بها عكاء صوبوها نحوها والريح تسوقها والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ما هذه طريقها ووهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها ...فدخلت الثغر وادخلت اليه كل خير ,وعجب الناس منها ومما تم لها من حيلة في سير ,واجتزأ البلد بها شهرا ,ووجد منها لكل كسرا جبرا"(٣٣).

واشار ابن شداد الى هذه الحادثة بقوله" تم ادخال اربعمائة غرارة من القمح ووضع فيها الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة فدخل جماعة من المسلمين تزينوا بزي الافرنج ,حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير فوق المؤنة المهربة حتى خالطوا مراكب العدو, فخرجوا اليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني واعتقدوا انهم منهم ,اوهموهم انهم يقصدون عسكر الفرنج المحاصر لعكا واستقامت لهم الريح حتى وصلوا ميناء البلد ,وكان فرحا عظيما فأن الحاجة كانت قد اخذت من اهل البلد"(٣٤).

في حين نجده يخبرنا عن فشل محاولة اخرى لتهريب الطعام لأهل عكا من سفينة قادمة من بيروت "وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والاسلحة والمير والرجال والابطال المقاتلة ,وكان السلطان امر بتعينها وتسييرها من بيروت ووضع فيها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ,فأغرقها الانكتار في عدة شوان (مراكب اصغر من السفن),فقاتلوها قتالا عظيما ,وقتل من العدو عليها خلق عظيم ,واحرقوا للعدو شانياً كبيراً فيه خلق عظيم ,فهلكوا عن آخرهم ,وتكاثروا على اهل البطسة ,وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب ,فلما رأى امارات الغلبة عليهم وانهم لابد وان يُقتلوا وقال: والله لانقتل الا عن عز ,ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا ,فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ,ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب ابوابا ,فامتلأت ماء ,فغرق جميع من فيها وما فيها من آلات والمير وغير ذلك ولم يظفر العدو منها بشيء ,وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب ,وتلقف العدو بعض من كان فيها ,فأخذوه الى الشواني من البحر ,وخلصوه من الغرق ,وانفذوه البلد ليخبرهم بالواقعة ,وحزن الناس خزنا شديدا "(٣٥).

ودون الاصفهاني هذه الواقعة البحرية بأسلوبه السجعي قائلا" واركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا...,صادفها ملك الانكتير ,بحكم قضاء الله والتقدير, واحدقت بها شوانيه ,وقاتلها نصف نهار وهي لا تذعن لأقتسار ,وقتل من الفرنج خلق عليها...,فلما

يئست من سلامتها وزلت عن استقامتها ....ومالت الى الاستسلام وجالت على الاصطدام ,قال مقدمها: علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل ,فنزل الى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى اغرقها ,وسعد اهلها ,وافترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها" (٣٦).

7-خديعة المدن والقلاع المخربة واستراتيجية الارض المحروقة:

لجأ صلاح الدين الايوبي الى تكتيك ما يعرف حديثا بالأرض المحروقة فعند زحف الامبراطور الالماني فردريك بربا روسا باتجاه بلاد الشام فعزم صلاح الدين "الا يدع مدينة من المدن ولا قلعة من القلاع سليمة ,لأنه ان صادف واحدة سليمة احتلها وشحنها بالمقاتلين فتفشل اذ ذاك ريح المسلمين وينالهم الضر والاذى ,ومن اجل هذا خرب صلاح الدين القلاع والحصون والمدن الواقعة على الساحل"(٣٧).,كما فعل بحصن مرج عيون عندما اشعل فيه النار وبعد يومين نقبوه "واقام السلطان في منزلته حتى هدم الحصن الى الاساس ,وطم جب معين كان حفرته الفرنج في وسطه وورمي فيه القتلى "(٣٨). وفعل ذات الشيء بمدينة يافا التي دمر اسوارها ,كما خرب مدينة عسقلان خشية احتلالها من قبل الملك الانكليزي ريتشارد (٣٩).

ويعلق المستشرق الفرنسي البير شاندور على هذه التكتيكات التي قام بها صلاح الدين تحت عنوان الصراع على الساحل الفلسطيني ,وسياسة الارض المحروقة "حاول الفرنجة الاستيلاء على الساحل الفلسطيني ,بهدف اعادة سيطرتهم على القدس ,فناجزهم صلاح الدين بمعارك ضارية دارت مابين ارسوف والرملة وولم يتردد بطل الشام في تدمير مدينة عسقلان خشية ان تسقط بيد الفرنجة كي يؤمن حسب قوله حياة القدس وخلاصها.. كما هدم الرملة واللد جاعلا الطريق الى القدس قاعاً صفصفا ومطبقا بذلك استراتيجية الارض المحروقة ,في كل موطيء قدم يمكن للأعداء ان يجوسوا خلاله(٤٠).

8-خديعة الصليبيين للأيوبيين في معركة ارسوف:

كان هدف الصليبيين العسكري يتمثل في اقامة قاعدة توفر لهم امكانية مهاجمة بيت المقدس وهي عسقلان من خلالها لذلك اتجهوا صوب يافا متخذين الطريق الساحلي٢٨ رجب ٥٨٩هـ/ ٢٢ اغسطس ١١٩١م اتجهوا صوب حيفا ,فاتجه الجيش الايوبي الى

مضايقتهم في سيرهم, ومناوشتهم ,وتمت مهاجمتهم بالسهام على نحو وصف بأنه "ما كان يحجب الشمس "وقد قتلوا وجرحوا من اعدائهم عددا كبيرا (٤١).

فضلا عن ان السهام ذاتها كان من شأنها فرض التوتر العصبي الشديد على الجنود الذين تعرضوا لها ,كذلك نجد ان المسلمين قتلوا عددا من الصليبيين مما اجبر الاخيرين على طلب التفاوض (٤٢).

اما السبب الذي حدا بالمسلمين بالموافقة على طلبهم هو انتظار المدد من التركمان ,وكان الطرف الذي يمثل الايوبيين هو اخ صلاح الدين الملك العادل اذ بين ريشارد ان امد الصراع طال بين الطرفين وانه يود المصالحة مقابل ان يردوا للصليبيين ما استرده المسلمون من اراضي اعقاب معركة حطين (٤٣).,وهو امر لم يمكن قبوله وعقد هذا الاجتماع في ١٢ شعبان/٥ ايلول ١١٩١م ,اي قبل خوض غمار معركة ارسوف بيومين(٤٤).

مما جعل الصدام الحربي لا مفر منه ولكن ليس بالسرعة التي ظنها صلاح الدين الايوبي ففي الوقت الذي حصل الجيش الصليبي على الدعم من الاسطول البحري لم يتوفر ذلك للمسلمين ,كما ان الجيش الصليبي حوى في صفوفه كافة التنظيمات الداوية والاسبتارية وغيرها من القوى الصليبية التي انضوت تحت لواء ريتشارد فانتهت المعركة لصالح الصليبيين (٤٥).

بدأ المسلمون هجومهم في الضحى اثر مواصلة الصليبيين مسيرهم نحو مدينة يافا ,وأخذ العساكر بأسلحتهم الخفيفة والبدو الرجالة تنقض على المسيحيين في موجات متلاحقة ,يرمونهم بالسهام ,فانزلوا الخلل والاضطراب في الصف الاول للرجالة ,غير انه لم يكن لهم ادنى تأثير في الفرسان بأسلحتهم الثقيلة ,ثم انفرجت صفوفهم فجأة ,ونفذ منها الفرسان الترك يحملون فيطعنون بسيوفهم ,ويضربون بحرابيهم مركزين على الاسبتارية املاً في رد الجناح الايسر للمسيحيين ,الا ان الفرسان صدوا الهجوم ,ونجح الرماة في اعادة تنظيم صفوفهم بعد كل موجة من هجمات المسلمين ...ثم ركب ريتشارد ,ودخل غمار المعركة كيما يعيد الى الجيش شيئا من النظام ,ويتولى قيادة الهجوم ,فلم يكن بوسع العساكر المسلمين ان يقاوموهم ,ولم تلبث صفوف المسلمين ان تداعت ,فلاذوا بالفرار (٤٦). فأمست المعركة لمصلحة الصليبيين الذين خرقوا صفوف خيالة المسلمين بهجوم راكب وطاردوهم الى خارج ميدان

المعركة مسافة ميلين منتزعين فرسان المسلمين من سروجهم وطاعنين برماحهم من لاقوه له من المشاة ,وكان الاندفاع اندفاعا سريعا على سهل مستو توقف عند وصول الصليبيين الى سفح جبل مشجر شديد الانحدار ,وتسلقه المسلمون الا انهم سرعان ما نزلوا بعد مشاهدتهم تفرق الفرسان الصليبيين لغسل ما لحقهم من العار وكادوا ان يكسبوا المعركة لولا تدخل ريتشارد الذي رافقه حرسه الخاص ,وكان كلما رأى زمرة من فرسانه مطوقة شق طريقه نحوها وبعثر مهاجميها ,وتمكن ريتشارد من لم شمل الصليبيين وسيطروا على ساحة المعركة(٤٧). الا ان صلاح الدين جمع شمل قواته في الوقت المناسب للدفاع عن معسكره, وللقيام ايضا بهجوم آخر على العدو ,ولكن المحاولة باءت بالفشل ,ولم يحل المساء حتى اضحى للجيش المسيحي السيطرة على ساحة القتال, واستأنف سيره صوب الجنوب باتجاه يافا(٤٨).

وترجع قيمة هذا الانتصار الى الثقة التي منحها للمسيحيين ,اذ كانت هذه اول معركة مكشوفة منذ حطين ,ودلت على ان صلاح الدين يصح ان يتعرض للهزيمة ,واذا جرى هذا الانتصار عقب الاستيلاء على عكا ,فانه يدل فيما يبدو على ان المد قد تحول(٤٩).

وتمكن الصليبيين من الوصول الى يافا وهو ميناء بيت المقدس ,مما اجبر الطرف الايوبي على تخريب مدينة عسقلان واخلائها من سكانها اي بعد خمسة ايام من معركة ارسوف, وتحصن الجيش الايوبي في القدس مما شل من حركة الجيش الصليبي فقرر العودة الى المفاوضات التي اسفرت عن استحصال المناطق الساحلية حتى يافا من دون عسقلان وبيت المقدس التي ظلت بيد المسلمين(٥٠).

ووصف سميل معركة ارسوف بأنها "كانت نجاحا تكتيكيا مؤقتا لافتا للأنظار,ولكنه لم يكن اكثر من ذلك ,اذ كان الهجوم على نطاق واسع ,ولكنه لم يحقق اكثر مما حقق الفرسان في ١١١١و١١٨٢و١١٨٣و١١٩٠,ذلك انه خفف على الجيش الزاحف ,ولم تتم مواصلة المطاردة لانهم كانوا يخشون الوقوع في كمين الى حد ان صلاح الدين حشد رجاله في نفس اليوم واستعد للقتال في اليوم التالي فاستطاع ازعاج تحركاتهم بعد المعركة مجددا"(٥١).

٩- خديعة الملك ريتشارد للمسلمين:

في احداث عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م هاجم ريتشارد قلب الاسد قافة تابعة للمسلمين قادمة من مصر حيث تنكر في زي اعرابي ليستطيع التعرف على القافلة وثم هاجمها بعد ان تأكد ان حراسها قد غلبهم النعاس وباتوا يغطون في نومهم واستولى عليها"(٥٢).

10-خديعة ريتشارد للمسلمين في يافا وقدومه بحرا:

بعد عودة ريتشارد الى عكا استعدادا للعودة الى بلاده وصلته اخبار دخول صلاح الدين مدينة يافا وسيطرته عليها بالكامل خلال ثلاثة ايام عدا قلعتها التي اعتصم بها الصليبيون من الحامية التي تركها الملك الانكليزي ,فقرر الاخير الابحار بما متوفر لديه من السفن والشواني وما تبقى لدية من الجنود لاستعادة المدينة ,وبالفعل تمكن من نزول الساحل وبعد معارك عنيفة شهدت الكثير من الكر والفر ,انسحبت على اثرها قوات صلاح الدين من المدينة (٥٣).

بعدما ادرك كلا العاهلين ان وقت المعارك انتهى والباب اصبح مشرعا للمفاوضات فالوقت والمال بدأ ينفذ من ريتشارد الذي بدأت الاخطار تحدق بعرشه في انكلترا, والصحة وطاعة الجند لصلاح الدين بدأت تنفذ هي الاخرى ,فنوجز عبارة صلاح الدين المتواضعة التي خاطب بها بهاء الدين ابن شداد بقوله "فإنني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر"(٥٤).

ويعلق ابن شداد عن معركة يافا "لما شعر الانكتار ان القلعة مع اصحابه اندفع يطلب الساحل ,وكان اول شاني القى من فيه بالبر شانية ,وكان احمر ورقبته حمراء وبيرقه احمر , فما كانت الاساعة حتى نزل كل من في الشواني الى الميناء ,وكان تحتي فرس فسقته الى السلطان واخبرته الخبر...وخرج الانكتار الى موضع السلطان الذي كان فيه لضيق البلد ,وامر من في القلعة ان يخرجوا اليه "(٥٥).

ويذكر المؤلف المجهول عن معركة يافا ان الملك امر من كانوا في السفن ان يضعوا اوتادا خشبية ,وان يتخذوا من جذوع الاشجار ومن القلاع الملقاة امام الحصن ستارا لدفع هجمات المسلمين ,وبالفعل تم اقامة المتاريس ,فلا تكاد طائفة من المسلمين تدخل من ناحية حتى يرغموها على الخروج من ناحية اخرى ,واضطر الملك للدفاع عن نفسه بيده

وطرف درعه ,وقام اخ صلاح الدين بإرسال جواد الى ريتشارد بيد مملوك واخبره ان يقول للملك انه ليس من اللائق به ان يقاتل راجلا(٥٦).

كانت المعركة السابقة آخر لقاء تم بين قوات صلاح الدين وقوات ريتشارد قلب الاسد الذي سقط مريضا بالحمى فلزم خيمته ,وفي الوقت نفسه بادرت بعض القوات الصليبية بالاستعداد للرحيل خاصة الفرنسية ,فلم يجد الملك الانجليزي بديلا عن الحرب سوى الجنوح الى السلم وفتح باب المفاوضات من جديد ,كما ان الجانب الاسلامي قد اصابه الضجر والسئامة من القتال والمصابرة ,وفي الثاني والعشرين من شعبان ٥٨٨هـ/الثاني من سبتمبر ١١٩٢م كانت معاهدة الصلح المعروفة باسم صلح الرملة قد وضعت صورتها النهائية لمدة ثلاث سنوات , اشترطت عودة صليب الصلبوت ,اما البلاد التي نصت عليها لتكون مع الصليبيين فهي يافا وعملها واخرج منها الناصرة وصفورية (٥٧),ومناصفة اللد جنوب شرقي للد وفي الشمال من مدينة الرملة (٥٨), والرملة بين المسلمين والصليبيين ,وبذلك يكون الصليبيين قد احتفظوا بالبلاد الساحلية من صور حتى يافا ,كما تم الاتفاق على تخريب مدينة عسقلان وان يكون للصليبيين حرية الذهاب الى بيت المقدس للحج ,وللمسلمين ايضا حق في دخول البلاد التي امتلكها الصليبيون ,كما وافقت امارتي انطاكية ,وطرابلس على شروط الصلح ورضي الداوية والاسبتارية وسائر مقدمي الفرنج بمعاهدة الصلح(٥٩).

وتجدر الاشارة الى ان مدينة عسقلان هي من كانت حجر العثرة اسهمت في اطالة امد المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد ومن ثم تجدد المعارك بينهما حتى وصل الامر بصلاح الدين ان يخرب المدينة حتى لا تصبح قاعدة متقدمة يتم بها مهاجمة القدس وامداد المدينة بالجند والمؤن والسلاح ان سقطت بيد الصليبيين ,وحتى لا يصبح الساحل الفلسطيني بالكامل خاضع للصليبيين .

اما النقطة الاهم التي تثبت صحة ستراتيجية صلاح الدين العسكرية انه اراد ان يؤمن مواصلاته بين شطري دولته مصر وبلاد الشام لان مدن الساحل تعيق هذا الاتصال(٦٠).

ثانيا. الكمائن بين صلاح الدين الايوبي والصليبيين:

بدأت اعمال الكمن في عهد صلاح الدين (٥٧٠.٥٨٤هـ/١١٧٤.١١٨٨م) فور وصول انباء بقدوم جيوش الحملة الصليبية الثالثة فكمن للجيش الالماني قبل وصوله لقونية ملحقا به خسائر فادحة (٦١).,واستعمل صلاح الدين العرب البدو في كمائنه ضد الصليبيين في المناطق التي تواجدوا فيها كما حدث في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م وسنة ٥٨٧هـ/١١٩١م وسنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م لقاء مكافئات مالية بهدف قطع المؤنة عن القوات الصليبية القادمة من الموانئ الساحلية الخاضعة لسيطرتهم سواء عبر يافا او عكا (٦٢).

1-كمين نائب حلب لرينالد دي شاتيون:

امتازت شخصية رينالد صاحب الكرك والشوبك* الشوبك: تقع على يمين وادي عربه والى الشمال الشرقي من البتراء بنيت قلعتها بهدف مراقبة المنطقة الشرقية من المملكة ,الشارتري تاريخ الحملة الى القدس ,ص ١٥٨بكونها شخصية لا تتمتع بأدنى درجات الفروسية والالتزام بالعهود فمثلا قطع يمينا لأسد الدين شركوه بان لا يهاجم قواته برا و"تأويل ليمينه التي حلفها قال: انا حلفت اني ما الحق اسد الدين ولا عسكره في البر ,وانا اريد الحقة في البحر ,وركب في البحر ,وصار في يوم في عسقلان ,وخرج منها الى الكرك والشوبك ,وجمع عسكره المقيم هناك ,وقعد مرتقبا خروج اسد الدين من البرية ليوقع به ,وعلم اسد الدين بمكيدة ارناط بالحدس والتخمين ,فسلك طريقا من خلف المكان الذي كان فيه ارناط شرق الغور وخرج من البلقاء وسلمه الله تعالى ودخل دمشق ,واجتمع بنور الدين (٦٣).

استغل وليم الصوري كل مناسبة ليظهر عدم رضاه من تصرفات رينو دي شاتيون امير انطاكية بسبب سلوكه غير السوي ذلك السلوك الذي اضر بمستقبل الصليبيين في بلاد الشام ,ففي حوادث عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م يسدل الستار على المرحلة التكوينية لشخصية ارناط المغامر الصليبي فأشار وليم ,كيف ان رينو دي شاتيون كان يترصد الاخبار والمعلومات التي تخص السكان المسلمين وتنقلاتهم الموسمية وراء قطعانهم من الابل والاغنام بحثا عن الماء والكلاء ,فاستغل ارناط وجود هؤلاء وهجم عليهم فنهب وسلب ,وبعد انتهاء غارته تلك ,حاول العودة محملين بأنواع المتاع الذي نهبوه ,فكمن له عند رجوعه ,ولما علم ارناط بخطة مجد الدين ابن الداية* الداية: تعني كلمة داية الام بالكردية وكان

من اقرب الامراء لنور الدين كونه كان اخاه بالرضاعة واقطعه حلب ومدينة حارم ولما مات منح اقطاعة لأخيه شمس الدين ابن المرضعة ,,ابن شداد, النوادر السلطانية ٨٣,شاور اصحابه في الاحتفاظ بالغنائم ام القتال ,لكنهم اثروا في النهاية القتال, ففائجتهم القوات الحلبية بسهامهم ورماحهم ,ففر اغلب الجند واسر البعض الآخر ,اما عن ارناط فقال الصوري بحقة "وكفر الامير ارناط عن جميع اخطائه وجرائمه التي أقترفها فقد وقع في اسر العدو والذي كبله بالقيود وسار به الى حلب على اقبح صورة (٦٤).

2-كمين رينالد دي شاتيون للمسلمين في واقعة الرملة:

نزل صلاح الدين عسقلان سنة ٥٧٣هـ /١١٧٧ م ولما لم يجد رد فعل للصليبيين قرر التعمق في المسير وعند وصوله "نهر تل الصافية ,ازدحمت على العبور اثقال العسكر ,فما شعروا الا وقد اتوهم في اطلابهم, وجموعهم ,وجماعة من سرايا المسلمين متفرقون في الضياع للإغارة ,وكان مقدم الفرنج البرنس ارناط صاحب الكرك ,وكان اسيرا بحلب من ايام نور الدين ,ثم اطلقه الحلبيون...فجرى على المسلمين خلل ذلك اليوم وانكسروا ,...لما قارب العدو رأى جماعة ان تغير الميمنة الى جهة الميسرة ,والميسرة الى جهة القلب ,ليكون في حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بارض الرملة,فبينما هم يشتغلون في التعبية ,اذ هجم الفرنج, وقدر الله كسر المسلمين فانكسروا كسرة عظيمة, ولم يكن لهم حصن قريب ,فطلبوا جهة الديار المصرية ,وضلوا في الطريق ,وتبددوا ,واسر منهم جماعة ,وكان وهنا جبره الله بوقعة حطين (٦٥).

3-كمين صليبي عند تل الجزر:

في عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م دخل الجيش الصليبي في معركة مع الجيش الاسلامي بقيادة صلاح الدين الايوبي عند تل الجزر * تل الجزر: حصن من اعمال فلسطين ,ياقوت الحموي ,معجم البلدان,مج٢,ص٤١,حيث خرج على راس جيش قوامه عشرين الف قادما من مصر باتجاه عسقلان لمقاتلة الصليبيين ,فقرر بلدوين الرابع(٥٧٠- ٥٨١هـ / ١١٧٤-١١٨٥م)تجنب القتال مع المسلمين لتفوقهم العددي ,فتفرق جنود صلاح الدين لجمع الغنائم ليتفاجؤوا بهجوم مباغت من ارناط كانت قواته تراقب تحركات المسلمين ليلحق الهزيمة بالقوات الاسلامية (٦٦).

4- كمين رينالد دي شاتيون لقافلة اسلامية ومحاولة غزو الديار المقدسة:

في مرحلة من مراحل تواجد صلاح الدين في مصر كتابع لنور الدين زنكي كان تواجد رينالد دي شاتيون مفيدا لصلاح الدين ,اذ كان نور الدين يلح على صلاح الدين ان يبعث اليه بالعساكر المصرية لمحاربة الفرنج الذين استوطنوا المنطقة التي تفصل بينهما, وهي (الكرك)وكان امير من اقسى امراء الفرنج وهو ارناط غير ان صلاح الدين ,وكان حينئذ يفكر في ان يستقل بملك مصر عن سيده نور الدين ,قدر ان اعانه على طرد الفرنج من هذه المنطقة الفاصلة بينهما وفقد اخلى الطريق بينه وبين نور الدين ,يأتي اليه بنفسه متى شاء ليسترد ملكه منه ,من اجل ذلك اعتذر صلاح الدين لنولاه عن عجزه عن ارسال العساكر المصرية ,وذلك بسبب سوء الاحوال الداخلية في مصر ,ومن هنا بدأت الوحشة بين الرجلين(٦٧).ولكن ما ان انضم بلاد الشام الى حكمه حتى اصبح لزاما عليه ازالة هذا الفاصل وتوحيد طرفي دولته الشرقي والغربي .

ذكر غروسيه استفادة رينو من حصونه في قلعة الكرك(قلعة مؤاب)وحصن الشوبك في التحكم في الطريق الواصل بين سوريا الاسلامية ومصر ,فقطعت بذلك امبراطورية صلاح الدين الى شطرين ,كما استغل رينو ذلك للإغارة على قافلة الحج المتوجهة الى مكة واستلابها ١١٨١م,فادى هذا العمل اللصوصي الوقح الى تأجيج اشد معاني السخط البالغ في ضمائر الامة الاسلامية(٦٨). يذكر صاحب الذيل على كتاب وليم الصوري" جاء جاسوس الى الامير واخبره ان هناك قافلة كبيرة قادمة من القاهرة الى دمشق, وانها سوف تمر بالكرك, فامتطى الامير رينو صهوة جواده حالما سمع هذا النبأ ,وجمع حشدا كثيفا من رجاله وخرج بهم معترضين القافلة واستولوا عليها, وكان بها اخت السلطان صلاح الدين الذي ما كاد يسمع الخبر... بادر بإرسال مبعوثين من قبله الى الملك جي(غي لوزنيان)ويعلن اليه رغبته في عدم شجب الهدنة التي كان قد عقدها ايام الملك الصغير ,فاصدر الملك جي امره الى رينو دي شاتيون ,بإعادة القافلة وكذلك اخت السلطان, فكان الجواب انه غير فاعل ذلك ابدا ,لأنه هو مولى هذه الناحية وصاحب الامر والنهي فيها شأنه في ذلك شأن جي في ارضه ,زد انه ليس بين رينو وبين المسلمين هدنة ولا عهد لقد كان اخذ هذه القافلة هو السبب المؤدي الى ضياع مملكة بيت المقدس"(٦٩).

وعلق ابن واصل على ذلك من دون اي ذكر لوقوع اخت السلطان في الاسر "كان البرنس ارناط صاحب الكرك كثير الغدر والخبث ,وكان قد هادن السلطان وسالمه ,فأمنت الطريق بين مصر والشام ,وتواصلت القفول ,حتى كان الذاهب والجائي ,ثم انه لاحت له فرصة في الغدر فغدر بقافلة عظيمة فيها نعم جليلة ,فأخذها باسرها ,وكان معهم جماعة من الاجناد فأسرهم وحملهم الى الكرك ,واخذ خيلهم وعدتهم فارسل اليه السلطان وقبح فعله ,فسأله اطلاقهم فامتنع ,واصر على عصيانه ,فنذر السلطان دمه" (٧٠).

والهب رينو مشاعر الامة الاسلامية من جديد ,عندما دفع نحو البحر الاحمر بأسطول مضى يتهدد مدن الاسلام المقدسة مكة والمدينة شتاء٥٧٧هـ/ ١١٨٢-١١٨٣م,وهذا يعتبر انتهاكا ما بعده انتهاك لأقدس حرمات المسلمين(٧١).

وكانت هذه اجرأ عملية في حياته ورغم ان الكرك تقع مسافة ١٢٠ ميلا شمال شرق خليج العقبة القرن الشرقي للبحر الاحمر ,امر رجالة بقطع الاخشاب من غابة مؤاب شرق البحر الميت بالقرب من الكرب وصنع خمس سفن وجربها في مياه البحر الميت وفككت وحملت على جمال وانزلها مياه البحر الاحمر ليمارس القرصنة البحرية مستهدف القوافل التجارية لمدة عام تقريبا ووصلوا الى الراغب احدى الموانيء التي تخدم مكة وهي لا تبعد سوى ٦٥ ميلا عن مكة ولكن تم تدمير سفنهم بواسطة الاسطول المصري واخذوا كسجناء(٧٢).

وفي اثر ذلك سار عز الدين فرخشاه "الى اعمال الكرك فنهبها ,والسبب ان البرنس ارناط صاحب الكرك لعنه الله ,كان اشد الفرنج عداوة للإسلام ,فجمع عسكره وعزم على المسير الى تيماء*تيماء: بليدة في اطراف الشام ودمشق بين الشام ووادي القرى ,ياقوت الحموي, معجم البلدان,ج١,ص٦٧ وحدثته نفسه بالمسير الى مدينة النبي (صلى الله عليه وسلم)ليستولي عليها وعلى تلك النواحي الشريفة ,فلما بلغ ذلك عز الدين وهو بدمشق سار بالعساكر الدمشقية الى بلده فنهبه وخربه ,وعاد الى طرف بلاد الاسلام واقام هناك ليمنع البرنس لعنه الله من المسير ,فامتنع بسببه من قصده ,فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس ان المسلمين لا يعودون حتى يتفرق جمعه ,ففرقه ,وانقطع طمعه في الحركة ,وعاد عز الدين الى دمشق ,وحمى الله الحرمين من غائلة الاعداء "(٧٣).

وعلق الاصفهاني على هجوم امير دمشق فرخشاه على الكرك "جمع جموع الشام واغتنم خلو بلادهم من حماتها وفراغها من كماتها فنهض اليها ...,فجاءت خيبة الفرنج من وراءها "(٧٤).

اما صلاح الدين فقد استشاط غضبا واقبل يحاصر الكرك التي لم ينجها من سطوته سوى التدخل البطولي لبلدوين الرابع في٥٧٩هـ/ ٤ ديسمبرمم١١٨٣(٧٥).

5- كمين بحري اوقعه المسلمون بالصليبيين:

يذكر ابن واصل انه "في سنة ٥٧٩هـ سار اسطول المسلمين من مصر فلقوا بطسه من الفرنج بالسلاح التام ,ومعهم اموال وسلاح يسيرون به الى فرنج الساحل ,فقاتلهم المسلمون وصبر الفريقان, وكان الظفر للمسلمين فاخذوا الفرنج اسرى ,وقتلوا البعض وابقوا على البعض ,وعادوا بهم وبالغنائم الى مصر" (٧٦).

6-موقعة الكمين:

واشهر كمائن صلاح الدين هوما عرف ب(وقعة الكمين)في ٢٢شوال عام ٥٨٦هـ/ نوفمبر ١١٩٠م قتل فيها عدد كبير من الصليبيين ,وكاد ان يقتل ريشارد قلب الاسد(١١٨٩-١١٩٩م) في احدى الكمائن الليلية هذه المرة في رمضان سنة ٥٨٧/ نوفمبر ١١٩١م في تل شمال مدينة عكا, عندما خرج متخفيا للصيد, واستغل المسلمون نوم بعض الحراس ولولا ان فداه احد جنوده لكان في عداد القتلى (٧٧).

7-كمين صلاح الدين بالصليبيين قرب عكا:

جاء هذا الكمين ردا للخسائر التي مني بها المسلمون على يد الصليبيين عند مدينة عكا" فرأى ان يقرر قاعدة وكمينا يرتبه لهم ,ويتخذهم فيه ,وبلغه انه يخرج وراءهم ايضا خيلا تحفظهم ,فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ,ثم انفذ الى عسكر تبنين الواقعة في جنوب لبنان, , وتقدم اليهم ان يخرجوا في نفر يسير غائرين على تلك الرجالة ,وان خيل العدو اذا تبعتهم ينهزمون الى جهة عينها لهم ,وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الاخرة ,وارسل الى عسكر عكا ان يسير حتى يكون وراء العدو ,حتى اذا تحركوا في نصرة اصحابهم قصد خيمهم ,وركب هو وجحفلة سحر يوم الاثنين شاكي السلاح متجردين وليس معهم خيمة الى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين, ورتب العسكر ثمانية اطلاب

,واستخرج من كل طلب عشرين فارسا من الشجعان ,وامرهم ان يتراءوا للعدو ,حتى يظهروا اليهم ,ويناوشوهم, وينهزمون بين ايديهم ,حتى يصلوا الى الكمين ,ففعلوا ذلك وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك ,وكان قد بلغهم الخبر, وتعبوا تعبية القتال, وجرى بينهم وبين السرية اليسيرة قتال شديد, والتزمت السرية القتال وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان, ولقائهم العدو بهذا الجمع اليسير واتصل الحرب بينهم الى اواخر نهار الاثنين ولم يرجع منهم احد الى العسكر ,واتصل الخبر بالسلطان ...فبعث اليهم بعوثا كثيرة ...ولم بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ...بعد ان جرت مقتلة عظيمة من الجانبين كانت من الافرنج عشرة انفس ,ومن المسلمين ستة انفار اثنان من اليزك ,واربعة من العرب ,وجرح خلق كثير من بينهم مملوك السلطان(٧٨).

8-كمين للصليبيين بواسطة القبائل العربية(كمين نهر النعامين):

بلغ الجيش الصلاحي ان جمعا من الفرنجة سيخرج للاحتطاب وجمع الحشيش والاعشاب من اطراف النهر فانتدب السلطان جماعة كمنت لهم في معاطف النهر ونواحيه في ١٦ شعبان سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م, فلما اغار الكامنون عليهم فقتلوا منهم خلقا عظيما واسروا جماعة واحضروا رؤوسا عديدة بين يدي صلاح الدين الذي خلع عليهم واحسن اليهم(٧٩).

وعبر عن هذا الكمين ابو العماد الاصفهاني "انتهى الينا الفرنج يتطرقون ويتطرقون ,ويأمنون ولا يتخوفون ,ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب من الاعشاش ...فانتدب جماعة من العربان وضراغم فارسة من الفرسان فأغاروا وهم غارون وساروا الى جمعهم وهم بتجمعهم سارون ,وحالوا بينهم وبين خيامهم وحشروهم الى حما حماهم ...وكم قتل من حزب العدو واسر وكم حمل ليكسر فكسر ,وربما مل الحزبان وكل الغربان ,فتوافقا على الامان وتواقفا يتكلمان ,وربما اقدموا ثم نكصوا وغنوا ورقصوا ,واذا لغبوا لعبوا, واستراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومن نوادر ما جرى وغرائبه ,وملح ما تم وعجائبه ,إن الطائفتين في بعض الايام ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام, فقال واحد من الفرنج :الى متى هذا القتال ,وقد فنى الرجال فاخرجوا صبيانكم الى صبياننا وليكونوا في امانكم وامانناً, ...وجذبه اسيرا فافتداه بعضهم بدينارين"(٨٠).

في حين يذكر ابن شداد هذا الحدث الذي جاء فيما يبدو بسبب ان القوات من القبائل العربية معروفة من قبل الصليبيين وكثيرا ما كان يعتمد عليهم ريتشارد ليكونوا ادلاء لديه او يستخدمهم كعيون لنقل المعلومات عن الجيش المسلم مقابل دفع اموال لهم وبسخاء, او للسبب الذي ذكره ابن شداد لطول مدة القتال عند مدينة عكا وتجدده بشكل شبه يومي جعل الطرفين يسأمان هذا القتال المتكرر "بلغنا ان جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فاكمن السلطان لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم ,وامنه عليهم ,فخرجوا ولم يشعروا بهم ,فهجموا عليهم ,وقتلوا منهم خلقا عظيما ,واسروا جماعة واحضروا رؤساء عديدة بين يديه فخلع عليهم ,واحسن اليهم, وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين اهل البلد حرب عظيم قتل وجرح وسبي ونهب ,وأنس البعض البعض ,بحيث ان الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال بعد ساعة, وكان الرجال يوما من الطائفتين قد سئموا القتال ,فقالوا الى كم تقاتل الكبار وليس للصغار حظ؟ نريد ان يتصارع صبيان منا ومنكم فاخرج صبيان من البلد الى صبيين من الافرنج, واشتد الحرب بينهم فوثب احد الصبيين المسلمين الى احد الكافرين فاختطفه وضرب به الارض ,وقبضه اسيرا ,فاشتراه بعض الافرنج بدينارين ,وقالوا هو اسيرك حقا, فأخذ الدينارين واطلقه ,وهذه نادرة غريبة"(٨١).

وبحسب جب فانه بالرغم من ان صلاح الدين لم يكن مخطط استراتيجي على الاطلاق لكنه كان تكتيكيا جيدا وبواسطة الحركات التكتيكية البارعة احرز انتصاره في حطين ,مثلما انتصر مرتين على جيوش الموصل فكانت هذه الانتصارات اروع عملياته العسكرية ,كما ان استيلاءه قلعة آمد الواقعة في (دياربكر)التي اشتهرت بمناعة حصونها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م بعد حصار دام ثلاثة اسابيع حدث أغفلته كتب التاريخ الغربية بوجه عام(٨٢).

توفي صلاح الدين في اوائل مارس سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م وكانت وفاته وهو بدمشق بعد مرض قصير الم به ودفن هناك ومعه سيفه الذي طالما جاهد به اعداء الاسلام ليتوكأ عليه الى الجنة على حد تعبير المؤرخ ابو شامة, اما المؤرخ ابن شداد حب صلاح

الدين للجهاد وتفانيه في نصر دين الله فيقول وقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءا عظيما (٨٣).

واخيرا لم تكن مدة الحروب الصليبية مدة عنف متبادل بين المسلمين والصليبيين بشكل مطلق بل تخللتها مدد من السلام والتبادل التجاري واتفاقيات دبلوماسية الا ان الجانب الانساني كان اوضح على الطرف الاسلامي وخاصة عهد صلاح الدين الايوبي .

ورغم ان عهد صلاح الدين يعد ذروة الصراع العسكري بين الصليبين والمسلمين ,الا ان ذلك لم يمنع تعامله الانساني حتى مع الد اعداءه يحكمه في ذلك تعاليم الدين الاسلامي اولا ومبادي الفروسية العربية الاسلامية ثانيا , بحيث ان شخصية صلاح الدين هي الوحيدة من بين من قاوم الصليبيين لم تتعرض لهجوم ونقد مؤرخي العصور الوسطى لعل السبب في ذلك سلوكه الرحيم معهم في غالب الاحيان لاسيما بعد انجلاء غبار المعركة, وخاصة عند تحريره للقدس فكان بإمكانه سلوك ذات المسلك الذي سلكه الصليبيون عند احتلالهم للمدينة قبل تسعة عقود تقريبا .

فوصفة وليم الصوري "تميز صلاح الدين على الدوام بالنشاط واليقظة وقد رغب من كل قلبه ان يزداد اسمه تألقا ,وان يجاوز ملكه حدود مملكته , ولما كان شديد التطلع الى ان يحز الانتصارات فوق ما احوزه ,ولما كان يزدري بأس المسيحيين ولا يعدهم شيئا مذكورا فقد صمم على ان يتقدم صوب المشرق ,وليس من الواضح تماما حتى الآن أكان صادر في عمله هذا ذاتية تلقائية وبعظمة النفس التي هي طبيعة ركبت فيه ,ام انه كان مدفوعا للقيام بهذه المهمة الشاقة التي ربما كانت فوق طاقته بإلحاح امراء تلك الناحية عليه...على ان تقدم صلاح الدين احدث عند الصليبيين قلقا بالغا اذ راحوا ينظرون اليه والى تزايد قوته بفزع شديد مخافة ان يكر عليهم بإمدادات كبيرة "(٨٤).

وذكر مجهول الذي ذيل تاريخ وليم الصوري تحرير صلاح الدين للقدس "حينما حضر بين يدي صلاح الدين من اثنين اطفال الصليبيين استقبلهما بكل احترام ,وخلع عليهما الالبسة واعطاهما مالا ,وامر ان يجلس احدهما على ركبته اليمنى والاخر على ركبته اليسرى ,ثم اخذ يبكي بحنان ,وعندما سأله بعض قادته عن سبب بكائه ,قال مجيبا لا

احد يتعجب ويستغرب لان كل شيء في هذا العصر اخذ وعطاء او دين وسداد ,واقول لكم لماذا بكيت لأنني كما اعامل اولاد الآخرين سيعاملون اولادي بعد موتي (٨٥).

ونجد ابن شداد يدون قصه عن رحمة صلاح الدين ,كان من بين الاجراءات التي تتبعها الدولة الايوبية من اجل تخريب الروح المعنوية لدى الصليبيين واشعارهم بعدم الامان حتى في منازلهم "وذلك انه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام العدو ,فيسرقون منهم الرجال ,وكان من قصتهم انهم اخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة اشهر ,وساروا به حتى اتو الى خيمة السلطان وعرضوه عليه ,وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ,ويعطيهم ما اخذوه ,ولما فقدته امه باتت مستغيثه بالويل والثبور طول الليل وحتى وصل خبرها الى ملوكهم ,فقالوا :انه رحيم القلب ,وقد اذنا لك في الخروج ,فاخرجي واطلبيه منه ,فانه يرده اليك ,فخرجت تستغيث اليزك ,فأخبرتهم بواقعتها ,فاطلقوها ,وانفذوها الى السلطان فلقيته وهو راكب وانا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم ,فكبت بكاءً شديدا ,ومرغت وجهها في التراب ,فسأل عن قصتها فأخبروه ,فرق لها ,ودمعت عينه ,وامر بإحضار الرضيع ,فوجدوه قد بيع في السوق ,فارتده وامر بدفع ثمنه الى المشتري ,واخذه منه ,ولم يزل واقفا حتى احضر الطفل وسلم اليها ...والناس ينظرون وانا واقف في جملتهم فأرضعته ساعه ,ثم امر بها فحملت على فرس ,والحقت بعسكرهم مع طفلها ,فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر واللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والاكرام"(٨٦).

ولم يشذ المستشرقون عن المؤرخين اللاتين وكتاباتهم عن صلاح الدين والتي تأثروا بها فمثلا قال عنه باركر "كان صلاح الدين بطل التاريخ الاسلامي زعيما وقائدا اسلاميا متوسط القيمة وكما كان رجل دولة موهوبا ,كريما مع الصديق والعدو محبا للغير ,كان يجسد الاخلاق الاسلامية في عيون المسلمين ,فهو الزعيم المثالي للحرب المقدسة ضد الكفار"(٨٧).

اما مواطنه لين بول فيقول" اذا كان احتلال القدس هي الحقيقة الوحيدة المعروفة عن صلاح الدين ,فقد كانت كافية لتبرهن على انه اعظم شهم ذا قلب كبير كفاتح في زمانه او في اي عصر"(٨٨).

ووضع المؤرخ البير شاندرو عنوانا لكتابه يخرجه عن الموضوعية بعض الشيء بسبب اعجابه بشخصية صلاح الدين البطل الانقى في الاسلام.

ويقول عنه ستيفن هوارث "انه هؤلاء النادرين الذين يملكون صفات تجبر اصدقاءه واعداءه على احترامه ,وكل من التقوا به قالوا ذلك عنه ,كان يتصف بالرحمة بصفة عامة ,وجسورا مقداما ,دائما ما يفي بكلمته ,كانت هذه جميعا صفات المسلم الكامل ,المسلم المثالي(٨٩).

اما رنسيمان فقد نقل الكثير عن ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين الايوبي فقال عن لحظاته الاخيرة في الدنيا "لم يبقى جالسا عند فراش صلاح الدين الا قاضي دمشق وجماعة من الخدام المخلصين ,وفي يوم الاربعاء وبينما كان القاضي يتلوا القران حتى اذا انتهى الى قوله تعالى لا اله الا عليه توكلت فتح صلاح الدين عينه وتبسم وتهلل وجهه ومضى الى ربه"().تاريخ الحروب الصليبية,ج٣,ص١٤٧."يعتبر صلاح الدين من بين كبار رجال فترة الحروب الصليبية واكثرهم جاذبية ,ولم يتجرد من الاخطاء ,ففي سبيل الوصول الى السلطة اظهر المكر والقسوة ,ما لا يتلاءم مع ما حصل عليه من شهرة وصيت فيما بعد ,فلم يتردد في سفك الدماء لصالح سياسته ,فاجهز بيده على رينالد شاتيون الذي كان يبغضه وغير انه لم يحمله على القسوة الا مصلحة قومه ودينه و...لم ينقض عهدا متى بذل عهدا لاحدهم ,مهما اختلف عنه في الدين ,وبرغم حماسه الديني كان دمثا سخيا ,وباعتباره سيدا كان متسامحا شديد التعقل والرزانة ,ومع ان بعض امراءه نفروا منه لأنه كردي مُحدث النعمة"(٩٠).

واختتم رنسيمان رأيه بصلاح الدين بما اقتبسه من مؤرخ لاتيني اسمه فنسنت البوفي(٥٨٦-٦٦٢هـ/١١٩٠-١٢٦٤م) تقول "عندما كان صلاح الدين يعاني من سكرات الموت استدعى حامل لواء وامره بان يطوف في انحاء دمشق وبأعلى رمحه خرقة من كفنه وينادي بان ملك المشرق لم يحمل معه الى القبر الا هذه الخرقة"(٩١).

هكذا وصف المؤرخون الغربيون والشرقيون على السواء صلاح الدين بالاعتدال والبعد عن التطرف ,وتمسكه بمبادئ الاخلاق والرحمة والتسامح فامن الصليبيين على ارواحهم في كل المدن التي فتها بالأمان (٩٢).

الخلاصة:

* شهدت هذه الحقبة التي عاصرها نور الدين وصلاح الدين نوع من الامراء الذين اتسموا بنكث العهود المواثيق المبرمة مع المسلمين كرينالد دي شالتون الذي يعد اكثر من كمن للمسلمين من الامراء الصليبيين بسبب وقوع امارته على طريق التجارة في بلاد الشام معرضا القوافل التجارية الاسلامية في البر والبحر الى قرصنته ,الا ان الخطوة الجريئة التي مثلت القشة التي قسمت ظهر البعير, وسارعت في نهايته ونهاية تواجد الصليبيين في القدس هو محاولته غزو مكة والمدينة بالاقتراب منهما بحريا.
* اما الخدع العسكرية والمباغتات والمناورات فكانت تجري بين الطرفين كما فعل صلاح الدين عند تحريره مدينة عكا بوضعه القوة الصليبية المدافعة بين فكي كماشة ومن ثم ابادتها بعد ايهامها بالانكسار.
* تعد معركة حطين ابرز المعارك التي استخدم فيها الخداع اذ تم تحويل ساحة المعركة الى فخ استنفذ مياه ومؤن الجيش الصليبي قبل الانقضاض عليه فقد تم احراق الاحراش المحيطة بالمعسكر الصليبي امعانا في الاذى وزيادة عطش الصليبيين للماء الذي يقع خلف المعسكر الاسلامي, للدرجة التي اوصل الصليبيين الى قناعة بأن الموت بسيوف المسلمين اقل مشقة من الموت عطشا مما دفعهم للاندفاع نحو الجيش الاسلامي لينتهي بهم الامر بين قتيل واسير وكان من بين الاسرى كافة الامراء الصليبيين الذين شاركوا في المعركة ومن بينهم رينالد دي شاتيون صاحب الكرك وملك بيت المقدس جي لوزنيان.
*اما الكمائن فكانت للمسلمين اليد الطولى في هذا المجال كون المعارك تجري على ارضهم التي يعلمون خفاياها والمسالك الممكن ان يسلكها العدو ,مما اضطر الصليبيين دائما ارسال فرق استطلاعية تستطلع الطرق التي ممكن ان يسلكوها لما تحدثه هذه الكمائن من ارباك للجيش وغالبا ما تحقق للكامن الغلبة مستغلا عنصر المفاجئة ,للدرجة التي جعلت الصليبيين يحجمون عن مهاجمة مجموعة صغيرة من الفرسان المسلمين خوفا ان يكون ذلك كمين اعده المسلمون لإيقاعهم فيه , كما ان ريتشارد نفسه تعرض لكمين لم ينقذه منه سوى تفاني حرسه في الدفاع عنه, وهذا لا يمنع ان

الصليبيين قد لجأوا لمثل هذا التكتيك ,كما فعل امير انطاكية روجر بالأمير السلجوقي برسق الذي بالكاد استطاع الافلات بحياته من الكمين الذي تعرض له جيشه ,وروجر نفسه ذهب ضحية كمين اسلامي تم الاعداد له بدقة حتى ان الصليبيون اطلقوا على المكان الذي تعرض فيه وجيشه لهذا الكمين (ساحة الدم).

* ولم تقتصر الكمائن على البر فقط بل تعدتها الى البحر خاصة التي ما تعرصت له السفن التجارية والقتالية التي تحمل الجنود في ذات الوقت والتي تسمى بطسه اذ تبادل الطرفين الكمائن البحرية عند ميناء عكا ,ويرافق ذلك في بعض الاحيان قتال على ظهر السفن المهاجمة للسيطرة عليها, ومصادرة احمالها وخاصة ما تحمله من المواد الغذائية.

*واخيرا فان هذه الخدع والكمائن المتبادلة بين الطرفين اثبتت تفوق المسلمين على الصليبيين ,ورجحان كفتهم وفضلا عن العامل الثاني الذي كان يترافق مع انتصارات المسلمين وهي وحدة المسلمين عهد نور الدين وصلاح الدين وانقسام الصليبيين سواء في الداخل (الشرق اللاتيني)او الخارج الاوربي بسبب عداوات سابقة للأمراء والملوك القادمين من اوربا الى فلسطين ,فكانت نهاية مملكة بيت المقدس الصليبية مسألة وقت فقط بعد رحيل كل من صلاح الدين وريتشارد قلب الاسد اللذان اخلصا النية في الدفاع عن قضية ملتيهما .

الهوامش:

(١) ابن تغري بردي ,جمال الدين ابو المحاسن (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)٦-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة,(القاهرة, المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٣١م)ج٦,ص٢٤-٢٥

(٢)ابن تغري بردي ,النجوم الزاهرة,ج٦,ص٢٥-٢٩

(٣)حسين ,حمدي عبد المنعم ,تاريخ الايوبيين والمماليك (الاسكندرية ,دار المعرفة الجامعية,٢٠٠٠م)ص٧

(٤) براور, يوشع ,عالم الصليبيين ,ترجمة وتعليق وتقديم :قاسم عبده قاسم, محمد خليفة حسن ط١(الهرم, عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية,١٩٩٠م),ص٥٩

(٥) ياقوت الحموي , ابو عبد الله(٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان,(بيروت, دار صادر,١٩٧٧م) ,ج١,ص٢٩٢,ج٤,ص١٧١, ابن واصل ,جمال الدين محمد بن سالم(٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب, تحقيق: جمال الدين الشيال(القاهرة,١٩٥٧م) ص١٢٧-١٢٨

(٦) صلاح الدين الايوبي البطل الانقى في الاسلام ,ترجمة :سعيد ابو الحسن, مرجعة وتحقيق: نديم مرعشلي ط٢(دمشق, طلاس للدراسات والترجمة والنشر,١٩٩٣م)ص٤٣-٤٤

(٧)سمث ,جوناثان رايلي, الاسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص, ترجمة صبحي الجابي ,ط١(دمشق ,دار طلس للدراسات والترجمة والنشرو١٩٨٩م),ص٨٩-٩٥

(٨)لقزويني ,زكريا بن محمد بن محمود(ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) آثار البلاد واخبار العباد(بيروت, دار صادر ,د.ت) ص٢١٨

(٩)السامرائي ,عبد الجبار محمود ,معركة حطين ,دراسة تاريخية عسكرية ,مجلة المورد (بغداد ,دار الشؤون الثقافية,١٩٨٧م)العدد ٤,ص٢٠

(١٠)السامرائي, معركة حطين,العدد,٤,ص٢١

(١١) مؤلف مجهول . ذيل وليم الصوري (القاهرة, الهيئة المصرية العامة للكتاب,٢٠٠٢م) ص٨٥

(١٢) مجهول ,ذيل وليم الصوري,ص٨٦-٨٨

(١٣) ابن شداد ,ابو المحاسن بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة, مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة ,٢٠١٢م),ص٥٢

(١٤) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب,ج٢,ص١٩٠-١٩١

(١٥) جب, هملتون,صلاح الدين الايوبي ,دراسات في التاريخ الاسلامي ,ترجمة: يوسف ايبش (بيروت, مطبعة بيسان,١٩٩٦م),ص١٥٠

(١٦) مجهول, ذيل وليم الصوري, ص١١٠-١١١

(١٧)مجهول ,ذيل وليم الصوري,ص١١-١١٢

(١٨) ابن العماد الاصفهاني ,ابو عبد الله محمد بن محمد(ت٥٩٧هـ/١٢٠١م)الفتح القسي في الفتح القدسي ط١(القاهرة, دار المنار,٢٠٠٤م) ص٧٢

(١٩) مجهول ,ذيل وليم الصوري,ص١٢١

(٢٠) Archer ,T.A ,The crusade of Richard,1189-92,(London,1900)p.6,45

, رنسيمان ,ستيفن,تاريخ الحروب الصليبية, نقله الى العربية: السيد الباز العريني (بيروت ,دار الثقافة,١٩٦٧م),مج٣,ق١,ص١٩-٢٠, ٣٠-٧٠, ويست ,انتوني ,الحروب الصليبية, ترجمة : شكري محمود نديم, مراجعة :محمود الامين(بغداد ,شركة النبراس للنشر التوزيع,١٩٦٧م),ص١٠٦-١٠٨

(٢١)مجهول ,ذيل وليم الصوري ,ص ١٧٢, غروسيه,موجز تاريخ الحروب الصليبية, ترجمة وتعليق :احمد ايبش ط١(ابو ظبي, دار الكتب الوطنية ,٢٠١٤م),ص٦٧,طقوش ,محمد سهيل, تاريخ الحروب الصليبية ط١(بيروت, دار النفائس للطباعة والنشر,٢٠١١م), ص٤٩٦

(٢٢) ابن شداد, النوادر السلطانية,ص٧٧-٧٨

(٢٣) مؤلف مجهول,ص١٧٤

(٢٤) النوادر السلطانية,ص١١٠

(٢٥) القزويني ,واثار البلاد,ص٢٢٣-٢٢٤ , الدباغ, مصطفى مراد, بلادنا فلسطين (كفر قرع, دار الهدى,١٩٩١م),ج٢,ص١٥٥

(٢٦) ينظر ابن شداد ,النوادر السلطانية,ص١٩٤-١٩٦,ابن واصل ,مفرج الكروب,ج٢ص ٢٩٢, سميل ر.سي ,فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ,ترجمة :محمد وليد الجلاد ط١(دمشق, مركز الدراسات العسكرية ,١٩٨٥م),ص٢٤٠, الحميدة ,سالم محمد ,لحروب الصليبية عهد الجهاد المبكر(بغداد ,دار الشؤون الثقافية,١٩٩٠م),ج٣,ص٦٥

(٢٧) ابن شداد, النوادر السلطانية,ص٢١٨,ابن واصل ,مفرج الكروب,ج٢,ص٣٠٤

(٢٨) Archer, T.A and Charles L. Kingsford, The Crusades ,p٣٥١.

(٢٩) ابن خلكان ,ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد (٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان تحقيق : احسان عباس (بيروت ,دار صادر ,د.ت),ج٤,ص٩٢,ابوشامه, الروضتين,ج٢ , ص ٨٩

(٣٠) الاصفهاني, عماد الدين ,محمد بن محمد بن حامد(ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) الفتح القسي في الفتح القدسي ط١(القاهرة, دار المنار,٢٠٠٤م),ص١١٥

(٣١) ابن شداد,ص١٦٧,الدباغ بلادنا فلسطين ج٢ ,ص٢٢٠-٢٢٢

(٣٢) مفرج الكروب,ص٧٧,هامش رقم .١.

(٣٣) الفتح القسي,ص٢٢٢

(٣٤) ابن شداد, النوادر السلطانية,ص٩٢

(٣٥) النوادر السلطانية,ص١١٤

(٣٦) الفتح القسي,ص٢٥٦

(٣٧) مجهول ,ذيل وليم الصوري , ص١٧٤

(٣٨) ابن واصل ,مفرج الكروب,ص٨٢

(٣٩) ويست ,الحروب الصليبية,ص١١٦

(٤٠) صلاح الدين الايوبي البطل الانقى في الاسلام ,ص٣١

(٤١) ابن الاثير,ابو الحسن على بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الملقب بعز الدين(٦٣٠هـ/١٢٣٣م)١لكامل في التاريخ ,رجعه :محمد يوسف الدقاق ط٤(بيروت, دار الكتب العلمية ,٢٠٠٣م) ج٩,ص٢١٥, محمد مؤنس احمد عوض ,في الصراع الاسلامي الصليبي, ط١(الامارات, عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية,١٩٩٧م) ص١٠

(٤٢) ابن شداد,ص١٨٢,ابن واصل, مفرج الكروب,ج٢,ص٣٦٧

(٤٣) مؤنس ,في الصراع الاسلامي الصليبي,ص١٣

(٤٤) مونس, في الصراع الاسلامي الصليبي,ص١٤-١٥

(٤٥) مؤنس ,في الصراع الاسلامي الصليبي ,ص٣٦

(٤٦) رنسيمان ,تاريخ الحروب الصليبية ,مج٣,ق١,ص ١١١

(٤٧) ويست ,الحروب الصليبية,ص١١٨-١١٩

(٤٨) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية,مج٣,ق١,ص١١١

(٤٩) رنسيمان ,تاريخ الحروب الصليبية,مج٣,ق١,ص١١٢

(٥٠) مؤنس ,في الصراع الاسلامي الصليبي,ص٤٣

(٥١) تاريخ الحروب الصليبية,ص١٦٢

(٥٢)ينظر ابن شداد, الاعلاق الخطيرة,ص٣١٨,إسماعيل,محمد علي واخرون ,النظم العسكرية للجيش الصليبي ,مجلة الساتل العلمية ,السنة الخامسة عشر ,العدد ٢٦,٢٠٢١ص١٠

(٥٣)رنسيمان ,تاريخ الحروب الصليبية,مج٣,ق١,ص,١٣٨,ويست ,تاريخ الحروب الصليبية,ص١٣١-١٣٧

(٥٤) جب, صلاح الدين الايوبي,ص٢٠١

(٥٥) النوادر السلطانية,ص١٧٠

(٥٦) ذيل وليم الصوري,ص٢٣٢

(٥٧) ياقوت الحموي ,معجم البلدان,ج٥,ص٢٥١

(٥٨) الدباغ بلادنا فلسطين ,ج١,ص٤٠٥

(٥٩)عمران ,محمود سعيد ,تاريخ الحروب الصليبية (الإسكندرية, دار المعرفة الجامعية,٢٠٠٠م)ص١٨٣-١٨٤

(٦٠) النحاس ,علاء رجب محمد, دور اسرة مونتفرات في الصراع الصليبي الاسلامي في منطقة الشرق الادنى الاسلامي,ط١(دمشق ,نور حوران للدراسات والنشر والتراث,٢٠٢٠م),ص١٣٧

(٦١) احمد ,كامل ياسر محمود , الكمائن الاسلامية ودورها في العمليات العسكرية ضد الصليبيين في الشرق اللاتيني ,مجلة الوقائع التاريخية,ص٣٣٣

(٦٢) احمد, الكمائن الاسلامية ,ص٣٣٤, ابن شداد ,النوادر السلطانية,ص,٣٠٠.١٦٩,٢٩٨,او شامة ,الروضتين,ج٤,ص١٢١,٢٤١ ,ابن شداد: النوادر، ص١٩٦؛ فواز: دور اليزك في جيش صالح الدين الأيوبي، ص.١١

(٦٣) ابو شامه ,الروضتين,ص٩٣

(٦٤) كرفان محمد احمد,وليم الصوري مؤرخا لسيرة لرينالد دي شاتيون ,ارناط ,مجلة الدراسات والاثار, العدد٧٥,حزيران ,٢٠٢٠م. ص٩٣

(٦٥) ابن واصل, مفرج الكروب ,ص٥٩-٦٠

(٦٦) ابن الاثير ,الكامل في التاريخ,ج١١,ص٢١٤,ابن شداد, النوادر السلطانية,ص٧٧

(٦٧)حمزة, عبد اللطيف ,ادب الحروب الصليبية,ط١(القاهرة ,مطبعة الاعتماد,١٩٤٨م)ص١٠٢

(٦٨) موجز تاريخ الحروب الصليبية, ترجمة وتعليق :احمد ايبش ط١(ابو ظبي, دار الكتب الوطنية ,٢٠١٤م) ص٦٤

(٦٩) مجهول, ذيل وليم الصوري,ص٥٢

(٧٠) مفرج الكروب,ص١٨٥

(٧١) غروسيه ,موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الاسلامي وشرقي البحر المتوسط,ص٦٤

(٧٢) هوارث فرسان الهيكل,ص١٦١

(٧٣)ابن واصل ومفرج الكروب,ص١٠٢,الاصفهاني ,سنا البرق الشامي,ص١٩٦

(٧٤) سنا البرق الشامي,ص١٩٦

(٧٥) غروسيه ,موجز تاريخ الحروب الصليبية,ص٦٤

(٧٦) ابن واصل, مفرج الكروب,ص١٣٩-١٤٠

(٧٧) احمد, الكمائن الاسلامية,ص٣٣٥

(٨٧) ابن شداد ,النوادر السلطانية,ص٦٧-٦٨

(٧٩) الدباغ, بلادنا فلسطين, ,ج٧,ق٢,ص٢٠٩

(٨٠) الفتح القسي,ص١٦٦

(٨١) ابن شداد ,النوادر السلطانية,ص٧٣

(٨٢) صلاح الدين الايوبي,ص١٩٠

(٨٣)ابو شامة, عيون الروضتين, ص ٢٨١,غنيم ,اسمت, تاريخ الحروب الصلبية (الاسكندرية, ١٩٩٦م,)ص١١٠

(٨٤) وليم الصوري(ت ٥٨١هـ/١١٨٥م),الحروب الصليبية ,ترجمة: حسن حبشي(القاهرة, مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع,١٩٨٨م) ج٤,ص٣٠٩,٢٩٩

(٨٥) ذيل وليم الصوري,ص١١٠

(٨٦) النوادر السلطانية,ص١١١

(٨٧) الحروب الصليبية,ص٥٩

(٨٨)بول ,لين صلاح الدين الايوبي وسقوط مملكة بيت المقدس,ترجمة :فاروق سعد أبو جابر,ط١(القاهرة, مطابع الاهرام,١٩٩٨م)ص١٩٧

(٨٩)هوارث, ستيفن, فرسان الهيكل, القصة الأساسية ,ترجمة :إبراهيم محمد إبراهيم (القاهرة, الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية ,٢٠١٢م)ص١٤٦

(٩٠) تاريخ الحروب الصليبية,ج٣,ص١٤٨

(٩١) تاريخ الحروب الصليبية,ج٣,ص١٤٩

(٩٢) اسكندر ,فايز نجيب ,تسامح صلاح الدين مع الصليبيين اثناء حرب تحرير القدس, تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (المنصورة ,توزيع المكتبة العلمية, د.ت)ص٤٠